

جدل المفاضلة بين الشعر والنثر، عند نقاد المغرب الإسلامي في العصر الصنهاجي

Controversy between poetry and prose , When critics of the Islamic Maghreb In the Sanhaji era

د. العيد بودة

Dr. Elaid bouda

خريج جامعة قاصدي مرباح ورقلة، elaid88@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/21 - تاريخ القبول: 2021/12/02 - تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص:

يتضمن هذا البحث، قراءة وصفية نقدية لجملة من الآراء التي تبلورت حول قضية ثقافية مهمة، تتمثل في المفاضلة بين الشعر والنثر، لدى رواد الحركة النقدية خلال العهد الصنهاجي الذي يمثل حلقة تاريخية مضيئة في مسار الحضارة العربية الإسلامية، وقد حاولت البحث في الخلافات الكامنة وراء التفاضل بين مدونتي الشعر والنثر في آراء هؤلاء النقاد، ثم أنحيت البحث بموقف وسطي نراه أكثر موضوعية في مضمار الجدل القائم بين أنصار الشعر، وأنصار النثر. الكلمات المفتاحية: المفاضلة، الشعر، النثر، المغرب الإسلامي، النقد القديم.

Controversy between poetry and prose , When critics of the Islamic Maghreb In the Sanhaji era

Summary

This paper contains a descriptive and critical reading of a set of views on an important cultural issue, the distinction between poetry and prose, among the pioneers of monetary movement during the Sanhaji period, a historic episode of the Arab-Islamic civilization. I tried to explore the basic differences between magazines of poetry and prose in the views of these critics, and then presented the middle position, which we see as more objective in the area of disagreement between supporters of poetry and proponents of prose.

Keywords: Differentiation, poetry, prose, Islamic Maghreb, ancient criticism.

المؤلف المرسل: الدكتور العيد بودة، الإيميل: elaid88@mail.com

1. مقدمة:

يكتسي موضوع المفاضلة بين الصناعتين، أهمية بالغة؛ سيما أنه يتصل بتشكلات الكتابة التي تمثل افادا مركزيا في الثقافة العربية، ولعل أهم دافع هذا الباحث لتخصيص هذه الورقة المتواضعة؛ هو ميله إلى تعميق وعيه بخصوصية الكتابة العربية القديمة بمكوناتها التعبيرية المختلفة. كما أنه يسعى إلى مراكمة تصوراتها فيما يخص الطابع العام الذي اقتضاه تفضيل جنس أدبي معين على آخر.

وإن مما يدفعنا لاختيار هذا الفضاء الزمني بعينه، هو انتماؤه إلى عصور الأدب العربي القديم الذي مايزال أرضية مناسبة، لم تُستَهْلَكْ بحثا ودراسة، لاسيما الأدب العربي في المغرب الإسلامي الذي لم ينل حظه من الاهتمام البحثي، مقارنة بالتراث الأدبي في المشرق العربي، وهذا مما يجعلني أضطلع بمسؤوليتي البحثية اتجاه تراثنا المغربي القديم الذي مايزال جزءا كبيرا منه يستصرخ الباحثين لإعادة بعثه من جديد، ف جاءت هذه الورقة البحثية لتضيء جانبا مهما في مضمار الحركة النقدية بالمغرب الإسلامي، ويتعلق الأمر بقضية مهمة استغرقت نقاشا فكريا طويلا في النقد العربي القديم، خلال مرحلة تاريخية مضيئة؛ بلغت فيها القيروان مرتبة عليا في مجال الازدهار الحضاري؛ حيث رسّخت الدولة الصنهاجية تقاليد الاحتفاء بالعلم والعلماء؛ فتطور النثر الفني وراجت سوق الأدب، وسار الشعر في مدارج الارتقاء، وبدأ الأدباء في تكوين شخصية أفريقية مستقلة في النقد والأدب، وقد برزت في هذا العصر أول حصيلة نقدية شاركت فيها مجموعة كبيرة من الشعراء والأدباء، ممن لم يظفر بهم أي عهد سابق أو لاحق في بلاد المغرب الإسلامي، حيث يمكننا اعتبار أن أوائل ما وصلنا من نتاج نقدي مغربي يعود إلى ذلك العهد.

أما بخصوص اختيار عينة محددة من نقاد العهد الصنهاجي، فمسوغ ذلك أنهم يمثلون روادا للنشاط الأدبي والنقدي في تلك الفترة الزاهرة، علاوة على أن جهودهم الفكرية شكّلت لبنة أساسية في تشكيل التجربة الأدبية والنقدية في المغرب القديم، ويتعلق الأمر بالحصري القيرواني صاحب زهر الآداب، وعبد الكريم النهشلي صاحب كتاب الممتع في صناعة الشعر، وابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة، وابن شرف القيرواني صاحب كتاب أعلام الكلام، والقزاز القيرواني صاحب كتاب ضرائر الشعر. وقد قُدِّرَ لهؤلاء جميعا أن يعيشوا في القيروان، أو يكونوا على اتصال مستمر بها قادمين من المراكز الأخرى القريبة أو البعيدة؛ ليستقروا ولو لبعض الوقت في بلد المعز بن باديس، وابنه تميم بعده، كما أنهم تركوا بصمة ثقافية بارزة.

تقودنا لطرح تساؤلات الآتية: هل عني هؤلاء بقضية المفاضلة بين الصناعتين وفق معطيات ذوقية أو موضوعية؟ وهل كانت مواقفهم موحدة إزاء المفاضلة، أو متباينة؟

2. العرض

1.2 المفاضلة بين الشعر والنثر عند المشاركة:

لقد استغرقت قضية المفاضلة بين الشعر والنثر جانبا كبيرا من النقاش النقدي، ودفعت بكل طرف إلى تبرير رأيه وفق جملة من الأدلة والبراهين ، وقد سبق المشاركة إخوانهم المغاربة في معالجة هذا الموضوع، على غرار الجاحظ الذي يميل إلى تفضيل الشعر بنوعيه، القصيد والرجز. على النثر الفني المتمثل في السجع والمزدوج، إذ يقول: "فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز." (الجاحظ، 1998، 214/1) كما نجد الحاتمي يتجه نحو تفضيل الشعر في قوله: " وجدت البلاغة منقسمة قسمين منظوما ومنثورا وأولى هاذين القسمين بالمزية والقدم للمتقدم المنظوم." (الحاتمي، 2000، 20/1) ويُضاف إلى هاذين الناقد أبو هلال العسكري الذي فَضَّل الشعر على النثر بأمر ترجع إلى الوزن وبقائه على أفواه الرواة، واستفاضته في الناس، وبعد سيره في الآفاق وحسن وقعه على الأسماع والقلوب، وإلى تأثيره في الأعراض والأنساب وإلى أنه لا يقوم مقامه شئ في المجالس الحافلة، وأن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس إلا به. وأنه أصلح للأحان التي هي أهنأ للذات، وأن ألفاظ اللغة وشواهد لها لا تؤخذ إلا منه، وأنه مصدر أخبار العرب وآدابها وعلومها وأنسابها، فهو ديوان العرب. (العسكري، 1981، ص: 155-156)

لكن هناك من النقاد من اتجه خلاف هذا الموقف المحتفي بالشعر، واعتبروا النثر أعلى منزلة من الشعر؛ ومن أولئك نجد المرزوقي الذي يقول بتأخر مرتبة الشعراء عن الكُتَّاب؛ لأن الإعجاز القرآني لم يقع في النظم، وهذا وحده دليل على شرف النثر. (المرزوقي، 1951، ص: 16) ويشاطره في هذا الرأي، أبو حيان التوحيدي الذي يُشيد بالنثر ويقدمه على الشعر؛ ذلك أن النثر أصل الكلام والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع. وبالنثر نزلت الكتب السماوية؛ لأن الناس يتكلمون به ابتداء، وهو غير محتاج للضرورات كالشعر. (التوحيدي، 1944، 132/2)

لا يختلف اثنان على كون الشعر من أكثر فنون القول هيمنة على الخطاب لدى العرب ، ولقد برزت هذه الهيمنة الشعرية على فنون القول في العصور الأولى، حيث كان الشعر الوسيلة الإعلامية والتواصلية المثلى. فضلا على كونه السَّجَّل المحكم لحياة العرب، وقد أصبح بعد هذه العصور مرجعا أساسيا

يستند إليه المؤرخون، والدارسون في أبحاثهم ودراساتهم، فالشعر كانت له مزية عظيمة عند العرب، فهو فخرها العظيم وقسطاسها المستقيم لا يستطيعون العيش دونه، وقد أكد الرسول شدة تعلق العرب بالشعر بقوله: «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين». (ابن رشيقي، 1981، 30/1)

لذلك حاول النقاد القدماء تقديم تصور عن الشعر ومفهومه. وعلى الرغم من أن النقد في القرنين الهجريين الأول والثاني وقف عند حد بدائي ساذج لم يتجاوزه إلى الناحية العلمية التعليلية، فقد كان مفهوم الشعر من أبرز القضايا التي تناولها هذا النقد.

ولعل أشهر ما ذكر في تعريف الشعر بيتان لم يتحدد زمن قولهما، ينسبان لحسان بن ثابت الشاعر المخضرم، حيث قال:

وإنما الشُّعْرُ لُبُّ المرءِ يعرضه على المجالس إن كَيْسًا وإن حُمْقًا
وإنَّ أشْعَرَ بَيْتٍ أنتَ قائله بيت يُقَالُ إذا أنشدته صدقًا (حسان بن
ثابت، 1992، ص: 274)

فالشعر من خلال هذا الطرح يعتبر مرآة عاكسة لشخصية الإنسان، وهو في هذا السياق متصل بالأخلاق إذ هو خلاصة صفات الإنسان الباطنية، عقلية كانت أو قلبية. وهذا ما دفع الباحث لتبني احتمال أن حسان أنشد البيتين بعد إسلامه؛ لأن عنايته بالأغراض الخلقية النبيلة في شعره تحققت بشكل كبير عقب البعثة المحمدية، مما جعل الأصمعي يرى في شعر حسان ضعف ولين، وفق منطق القائل أن الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان.

لا يخفى على أي قارئ للأدب العربي انحياز الثقافة العربية للشعر، وتفضيلها له على الخطاب النثري؛ ويُعزى ذلك إلى حاجة العرب للشعر بوصفه نظاما لسانيا يدعم نظام الكتابة الذي تأسس عليه النص القرآني الذي كان أول كتاب يجمع بين دفتين. (هيثم سرحان، 2006، ص: 13)

وتعود هيمنة الشعر على النقد العربي القديم؛ لكونه الثقافة الأدبية الغالبة في تلك الأحقاب التي كان النقد الأدبي يحاول فيها تأصيل أصوله، وتشبيد مقولاته، فلم يجد مدونة أوفر ولا أقرب مأخذا من الشعر، تسعفه بالشواهد وتمده بالأمناء، وتثريه بالأحكام؛ فالشعر ديوان العرب الذي ضُمَّن ثقافتهم وأستُخِفَّظَ أخبارهم وأيامهم، وأودع طرفا من أنسابهم وعاداتهم، بل كان في أحيان كثيرة صورة بلادهم وأطلس جغرافيتهم.

ويُعزى نفوذ الشعر وغلبته على ثقافة الأمم بحسب الدكتور طه حسين، إلى ملائمة الخطاب الشعري في عفويته وبساطته لحالة النشوء والتدرج الحضاري للأمم. ولعل هذا ما جعل النقاد الذين أبدوا بعض ملاحظاتهم النقدية، ورؤاهم التقويمية على النثر العربي في قرونه الأولى، يفعلون ذلك على ضوء نظرهم للشعر؛ ومن أسباب ذلك أن الفنون النثرية المتوفرة يومئذ كانت من الندره، وقربها من روح الشعر في حالة تُضعف استقلاليتها بأسلوبها، فتأتي تابعة لأسلوبية الشعر الذي فرض تقاليده على فكر المتلقي العربي وذوقه. وربما كان لذلك النفوذ الشعري أكبر الأثر في ميلان الناثرين إلى توسل اللغة الشعرية في كتاباتهم النثرية؛ لعلهم يستميلون الأسماع، فليس في مجموع الأمثال والحكم والوصايا التي تداولها العرب ما يعطيها ملمحا نثريا قويا واضح الملامح. إذ لم يفرقها عن القريض والرجز إلا القالب العروضي، وحتى في هذه الحال كثيرا ما تتضمن تلك النماذج عبارات موزونة سهلت على الشعراء تضمينها في قصائدهم، وما عدا هذا ففيها كل لوازم الشعرية من بنية مجازية وتكثيف وإيحاء وبديع. حتى إن الفنون التي تختلف في جنسها وبنيتها عن الشعر، كفن الخطابة وفن المقامة وغيرهما من الفنون السردية التي لم تكن من التنوع والعمق والكثرة، بحيث تفرض على النقد تطوير أدواته لمعالجتها، فإلى زمن متأخر عند ظهور المقامة في العصر العباسي ظل النقد ينظر إليها من خلال بلاغة الشعر، ولا شك أن من أسباب ذلك طبيعتها القائمة على الإلقائية والشفوية؛ بما أنها موضوعة أصلا لإلقائها في جماعة من الناس، إضافة إلى موسيقاها الداخلية المشبعة بالسجع وهو ما يجعلها بحق لونا نثريا يتوسل بلغة الشعر. (بوعامر بوعلام، 2017، ص:

2-3)

لكن المتأمل في بنية الخطاب الأدبي العربي، يمكنه أن يلاحظ بوضوح مساهمة المدونة النثرية إلى جانب المدونة الشعرية في صياغة المفاهيم الثقافية، وتشكيل الرؤى والتصورات المرتبطة بالإنسان العربي؛ لأن المضامين التي تنطوي عليها المادة السردية المنشورة في المصنفات القديمة غنية بالمعطيات المعرفية والتجارب والقصص والحكايات، التي تتعدى وظيفة الإمتاع والمؤانسة إلى تقديم مواقف وتصورات ومفاهيم تكشف عن أبنية الوعي العربي وأنظمتها العميقة، الأمر الذي يعني أن السرد خطاب زاخر بالمقولات والمعارف الكبرى التي إن تم فحصها واستثمارها، أدى ذلك إلى تزويدنا ب ذخيرة ثقافية ومعطيات دلالية، ستدفع نحو فهم ذاتنا الثقافية وتحولاتها فهما دقيقا، إضافة إلى توسيع دوائر الاحتجاج؛ فلاقتصار على الشعر سيظل مفتقرا إلى التمثيل والتدليل. (هيشم سرحان، 2006، ص: 14-15)

وهذا ما جعل دراسة النثر الفني بوصفه مادة إبداعية تقابل الشعر ضرورة ملحّة، لاسيما وأن عناية الباحثين المبكرة بالنثر الفني من خلال الإمام الدقيق بمخطوط الأدب العربي، وبمنعطفاته الدقيقة يمثل حلقة مهمة في حفظ الكينونة الثقافية، وإحياء التراث واستعادة الهوية. وتمثل لهذه الجهود المشعة بكتاب: النثر الفني خلال القرن الرابع هجري، للدكتور زكي مبارك، وكتاب: الفن ومذاهبه في النثر العربي، لشوقي ضيف الذي أفرد أيضا في سلسلة مشروعه الموسوم بـ: "تاريخ الأدب العربي" فصلا كاملا عن النثر الفني في عصور الأدب العربي التي درسها؛ لأن هذه الجهود تمثل منطلقا مهما لأية دراسة معاصرة تستند إلى رؤية منهجية مغايرة؛ إذ أن نتائج هذه الجهود خلفية معرفية ينبغي تمثلها في كل الأحوال. " (هيثم سرحان، 2006، ص:16)

ويرى عبد الفتاح كيليطو أن النثر العربي يكاد يكون متميزا في الإبداع الإنساني، إذ إن تداخلا كبيرا يقع في سلسلة الرواة والمتكلمين والمخبرين. (هيثم سرحان، 2006، ص:19)

ولاحزم من القول إن الإهتمام بموضوع المفاضلة بين الشعر والنثر لم يقتصر على النقد المشرقي فقط، بل تعداه إلى عدد من أعلام النقد في المغرب، الذين أدلوا بدلوهم في هذه القضية ويتعلق الأمر بأبرز نقاد العهد الصنهاجي الخمسة على غرار ابن رشيق والنهشلي والقزاز وابن شرف. أما الحصري فلم نجد له رأيا صريحا في الموضوع؛ كعادته في إضمار مواقفه وآرائه النقدية. وقد استنتج الباحث موقفه من هذه القضية تبعا لبعض الفرضيات المتعلقة بفكر الحصري من جهة وبيئته الثقافية من جهة ثانية، فهو لاشك لم يشذ عن غالبية النقاد المغاربة الذين ينزعون إلى تفضيل الشعر على النثر؛ لاسيما وأنه متأثر بالنقد المشرقي الذي اتجه أغلب نقاده إلى تقديم المنظوم على المنثور. وعلى الخصوص مشاركة القرون الهجرية الأولى، فضلا على أن الحصري أستاذ لأبرز علمين مغربيين في مجال النقد والأدب وهما النهشلي وابن رشيق، مما يعني أنه أثر لا محالة في موقفها من القضية، وعلى هذا الأساس نتوقع أنه على شاكلتها في مسألة المفاضلة، ولعل هذا السبب هو الذي يجعلنا نمنح موقف الحصري قدرا أكبر من التحليل والنقد .

2.2- المفاضلة بين الشعر والنثر عند النقاد المغاربة الصنهاجيين

أ- رأي الحصري القيرواني:

لم يقدم الحصري مفهوما محددًا للشعر، إذ وجدناه يكتفي بإيراد تعاريف مقتضبة لغيره من النقاد المشاركة، كتعريف الناشئ الأكبر، والخليل بن أحمد، وعمارة بن عقيل. دون أن يحدد فهمه للعملية

الشعرية، ولكنه يحدد وظيفة نفعية للشعر، عندما يرى أن المقاطع القصيرة أعلق بالمسامع، وأجود في المحافل، إذ يكفيك - كما يقول - من القلادة ما أحاط بالعنق. (خلدون بشير، 1981، ص: 88)

وعلى ذلك يمكننا القول بتفضيل الحصري للشعر؛ مادامنا وجدناه يربط الشعر بوظيفته النفعية كما أنه يرى في كتابه زهر الآداب، أن يقدم الشعر على النثر؛ لأنه كلام العرب. وقد أودعوه كل المعاني؛ لأن من شأن الوزن والقافية أن يؤلفا أشتاتة ويصوناه من الضياع، ويُسهِّلا حفظه على الذاكرة. (القيرواني الحصري، 1، 18/1951) ثم يورد كلاما للصاحب بن عباد يركي هذا الموقف ومؤداه: "النثر يتطير كتطير الشرر، والنظم يبقى بقاء النقش في الحجر." (القيرواني الحصري، 1، 22/1951) لاسيما وأن المقاطع الشعرية القصيرة أعلق بالمسامع، وأجود في المحافل، إذ يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق. (القيرواني الحصري، 1، 22/1951) حتى أننا نجد الحصري يحكم ضمينا بالأفضلية للشعر من خلال موازنته بينهما؛ إذ يورد قولاً: "بنى الشعر لقوم بيوتاً شريفة، وهدم لآخرين أبنية منيفة." (القيرواني الحصري، 1، 22/1951) فضلا على أنه شديد التأثر بالجاحظ الذي هو من أبرز مفضلي الشعر على النثر. كما يورد الحصري مجموعة من الشواهد التي تدل على عمق أثر الخطاب الشعري في النفوس، ومن ذلك قصة بنو أنف الناقة الذي كانوا يحجلون من ذكر هذا الاسم عند انتسابهم، حتى جاء الخطيئة فقال:

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدوا الغناج وشدو فوقه الكربا

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يُسوِّي بأنف النَّاقَةِ الدَّنْبَا

فصار أحدهم إذا سئل عن انتسابه لم يبدأ إلا به (القيرواني الحصري، 1951، 594/2)

ومن المؤشرات التي تحيل أيضا على تفضيل الحصري للشعر هو كثرة اعتماده على إيراد الشواهد الشعرية في كتاب النورين، حيث احتلت المادة الشعرية مساحة كبيرة من حجم الكتاب، فبلغت نسبتها سبعة وخمسون بالمائة، بتعداد هائل من الأبيات قوامه "1450" ألف وأربعمائة وخمسون ألف بيت، بينما بلغت نسبة المادة النثرية فيها ثلاثة وأربعين بالمائة، بمعدل 140 قطعة نثرية، إذ غالبا ما كان الحصري يتخذ الشعر مفتاحا للفصول و الألفاظ التي كان يعقدها لأهل العصر. وكأنه يشير إلى محافظة المحدثين على مكانة الشعر كخطاب رئيس في المجتمع العربي.

وفيما يتعلق بالشواهد التي تحيل على ميل الحصري للشعر هو قوله في مقدمة النورين: "...

وضممت الأشعار إلى الأخبار، ووشحتها بالمستندر المختار من كلام ملوك النظم والنثر." (القيرواني

الحصري، 1996، ص: 102)

فلا شك أن الحصري تعمّد تقديم كلمتي: الأشعار والنظم على كلمتي: الأخبار والنثر؛ لأن العرب قدّمت الشعر على النثر في عدة مواضع؛ حيث تواصلت به أكثر من النثر، كما اعتبرته أجدى من النثر في استيعاب كيانها. وهذا ما يركبه تلميذا الحصري، وهما النهشلي، وابن رشيق القيروانيين، ولا شك أن التلميذين على رأي أستاذهما الحصري؛ لاسيما وقد عرفنا أن للحصري تأثير كبير في تلامذته؛ حيث يقول ابن رشيق: "وكان الكلام كله منشورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة ... لتزه أنفاسها إلى الكرم، وتدلّ أبنائها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا؛ لأنهم شعروا به أي فطنوا ... وقيل: ما تكلمت به العرب من جيد المنشور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنشور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره." (ابن رشيق، 1981، 20/1)

ونجد النهشلي يتجه في نفس هذا الاتجاه فيرى أنّ الشعر أبلغ البيانين، وأطول اللسانين، وأدب العرب المأثور، وديوان علمها المشهور. (النهشلي، 1983، ص: 11) لاسيما وإن الشعر خير كلام العرب بعد القرآن وأشرفه، ترتاح له القلوب، وتجذّل به النفوس، وتصغي إليه الأسماع، وتُشخّذُ به الأذهان، وتحفظ به الآثار، وتُقيّد به الأخبار. " (النهشلي، 1983، ص: 14) فمن هذا الكلام يتضح أن للشعر وظيفة نفعية، ويتمجد هذا المعنى في قول الحصري نفسه ضمن مقدمة النورين: "وفي هذا الكتاب أكثر المعونة بأيسر المؤونة على تنبيه نائم الخواطر، وتحريك ساكن السرائر." (القيرواني الحصري، 1996، ص: 390) فالمقصود بأكثر المعونة هو نوع المادة الأدبية، ويُقصد "بأيسر المعونة" الشواهد الشعرية السهلة المأخذ، وقد جسّد الحصري ذلك في كتابه لأمرين: أولهما: سهولة حفظ الشعر على الذاكرة، وثانيهما: ليلقى كتابه قبولا واستحسانا لدى المهدي له أولا، والقارئ ثانيا.

وعودا على قول الحصري الذي تضمن عبارة "ضممت الأشعار إلى الأخبار" (القيرواني الحصري، 1996، ص: 102) فإن هذه العبارة توحى بقيمة الطرف المضموم؛ فلو لم يكن للشعر المضموم إلى النثر (الأخبار) مزية تستحق الذكر لما أشار إليها الحصري. ونستعين بقول ابن رشيق تزكية لما ذهبنا إليه: "وكلام العرب نوعان منظوم ومنثور ولكل منهما ثلاث طبقات جيدة ومتوسطة ورديفة، فإذا اتفق الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في

التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة." (ابن رشيق، 1981، 20/1)

ويستشهد الباحث بقول آخر مما قاله الحصري في مقدمة النورين، استخلصنا منه ميل المؤلف إلى تفضيل الشعر، حيث صرّح في هذا القول بتشابه النورين مع كتاب الزهر فقال: "... لأنه يجذو حذوه، وينحو نحوه في ملاحه النثر، ورجاحة الشعر." (القيرواني الحصري، 1996، ص: 103)

نفهم من هذا أن الحصري يُفضّل الشعر لرجاحته؛ لأنه وعاء للعقل والفكر والحكمة، بينما النثر الذي ألحق به صفة الملاحه، أقرب إلى القلب والعاطفة؛ لأنه يجنح بقارئه إلى فضاء الإمتاع والمؤانسة. ولم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّ من البيان لسحرا وإنّ من الشعر لحكمة." (النيسابوري، 1959، 07/1) فعادة ما يُفترق الناس بملاحه الحسان أو بالصنعة اللفظية، فيما يتصل بالأسجاع والأجناس والمطابقات، بينما يستأنسون بحكمة أبيات الشعر الراجحة التي تجسد صوت العقل والحكمة. لذلك اتخذ اليونانيون الشعر خزّاناً لمتوجهم العلمي، كما اتخذ العرب ديواناً لحياتهم، يقول ابن رشيق "ومن فضائله أن اليونانيين إنما كانت أشعارهم تقييد العلوم والأشياء النفيسة والطبيعية التي يخشى ذهابها، فكيف ظنك بالعرب الذي هو فخرها العظيم، وقسطاسها المستقيم." (ابن رشيق، 1981، 26/1)

ويرى الباحث أن موقف الحصري المتمثل في تفضيل الشعر على النثر، مرتبط بسببين مهمين، أولهما أخلاقي وثانيها نقدي أدبي.

أما الأول فرى أن الحاسة الدينية للحصري هي التي دفعته إلى تفضيل الشعر؛ ذلك أنّ للكتابة الشعرية بُعداً أخلاقياً تنبني عليه. ويتضح هذا في إيراده لقول عمر بن الخطاب: "تعلموا الشعر فإن فيه محاسن تُبتغى، ومساوى تُتقى." (القيرواني الحصري، 1996، ص: 103) ومن هذا يمكن أن نتبين موقف الإسلام من الإبداع الشعري، فهو لم يكن ضد الشعر كإبداع، ولكنه ضد كل ما يجانب القيم السامية. لذا يسوق الحصري قول الرسول عليه السلام: "إنّ من البيان لسحرا، وإنّ من الشعر لحكمة." (النيسابوري، 1959، 07/1) حتى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال عن شعر زهير بن سلمى: "إنّا قد سمعنا كلام الخطباء والبلغاء، وكلام ابن سلمى فما سمعنا مثل كلامه من أحد." (القيرواني الحصري، 1951، 23/1)

أما السبب النقدي الأدبي فيتضح في الرؤية النقدية للمؤلف إزاء نوعية الشعر المفضّل؛ ذلك أنّ الحصري يحدد مجموعة من المقاييس التي يجب توفرها في القصيدة لتكون جيدة. وجديرة بالخلود

الأدبي. فنجد في هذا الصدد يورد رأياً للحاتمي قال فيه: "مثلُ القصيدة مثل الإنسان في إتصال بعض أعضائه بعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وبأينه في صحة التركيب، غادر الجسم ذا عاهة تتخوف محاسنه وتعفى معالمة." (القيرواني الحصري، 1951، 18/1)

ثم يعقب الحصري على هذا القول مبرزاً رؤيته الخاصة من خلال القول الآتي: "وقد وجدت خُذَاق المتقدمين وأرياب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال إحتراساً يُجَنَّبُهُمْ شوائب التُّفْصَان، ويقف بهم على مَحَجَّةِ الإحسان، حتى يقع الإتصال، ويؤمّن الانفصال، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها، وانتظام نسيبها بمدحها، كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة لا ينفصل منها جزء." (القيرواني الحصري، 1951، 597/2)

فمن هذا الكلام نفهم أن الحصري أفضلية الشعر على النثر تحقق بوجود جملة من المقاييس كأن يكون الشَّعر منسجماً داخلياً وخارجياً، بليغاً في معانيه، متصل الوحدات بما يُعرَف اليوم بالوحدة العضوية. وهذا ما يشجعنا على القول أن الحصري كان من السابقين إلى التنبيه على مسألة الوحدة العضوية في الشعر .

ويبدو أن ميله الكبير للمحدثين هو الذي ساعده على التفتن لهذه المسألة؛ لأن الطرف الثقافي للمحدثين هو الذي ساعدهم على تحقيق هذه الوحدة في إبداعهم الأدبي، بينما لم يتحقق ذلك إلا لدى الخُذَاق من الشعراء القدامى. حيث يقول الحاتمي في هذا السياق: "وهذا مذهب اختص به المحدثون؛ لتوقد خواطره، ولطف أفكارهم، واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم، وكأنه مذهب سهَّلوا حزن ونهجوا رسمه." (القيرواني الحصري، 1951، 597/2) ولعل ما يجعل اهتمام القدامى بالوحدة العضوية نادراً هو أن شعرهم كان فطرياً، بعيداً عن التكلف والصنعة التي عرفها عصر الحصري نتيجة شيوع البديع. حيث يقول الحاتمي عن ذلك: "وربما أتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به إلى غرض لم يتعمَّدُهُ؛ إلا أن طبعه السليم قاده إليه." (القيرواني الحصري، 1951، 596/2)

ب- رأي عبد الكريم النهشلي:

يبدأ اهتمام النهشلي بموضوع المفاضلة من خلال محاولاته الجادة في ضبط تعريف الشعر، حيث اعتبر الشعر قدر مشترك بين جميع الأمم، وإن كان حظ الأمة العربية أوفر من حظوظ الأمم الأخرى. سيما وإنه خزائنها الثقافي، ومادام أنه اجتهد في ضبط مفهوم الشعر دون النثر، فإن ذلك يوحي بتفضيله الشعر لا

محالة، ويمكن استخلاص تعريفه للشعر ضمن كتابه الممتع، فقد تجاوز المفهوم التقليدي للشعر المحصور في الوزن والقافية، إلى ربط الشعر بالوجدان القادر على توليد الإحساس والعاطفة في نفس المتلقي أو القارئ متمثلاً بقول العرب: «ليت شعري؛ أي ليت فطنتي.» (النهشلي، 1983، ص: 86)

وإلى جانب ربط الشعر بالوجدان، فإن النهشلي جعل الشعر في منزلة سامية بعد القرآن الكريم، كما حدد له وظائف فعالة وصفات مميزة للشعر الحقيقي، حيث قال: «أفضل كلام وأعز، وأكرم، وأعظمه بركة، وأعوده بصالحة كتاب الله العزيز... ثم خير كلام العرب وأشرفه عندنا هذا الشعر الذي تراح له القلوب وتجدل به النفوس وتصغي إليه الأسماع وتشحذ به الأذهان وتحفظ به الآثار وتقيد به الأخبار» (النهشلي، 1983، ص: 36)

فمما تقدم يتضح لنا إمام النهشلي بالجوانب الخارجية والداخلية للعملية الشعرية. وأن الشعر بناء فني موزون ومقفى، وموضوع جيد ينبع من الوجدان ويمتج النفس ويحق لها اللذة العقلية بوصف الشعر من أهم مظاهر الحياة العقلية عند العرب.

ج- رأي ابن رشيق القيرواني:

لم يخرج ابن رشيق عما قاله السابقون في حد الشعر؛ بأنه يقوم على أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والقافية والمعنى؛ ولكنه أضاف النية والقصد كشرط لتمييز الشعر عن النثر، ففي كتاب العمدة تتضح لنا الكيفية التي نظر بها ابن رشيق إلى الموضوع، حيث قال: «يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية هذا هو حد الشعر؛ لأن من الكلام موزوناً ومقفى وليس بشعر؛ لعدم القصد والنية كأشياء اتزنت من القرآن ومن كلام النبي (صلى الله عليه وسلم)» (ابن رشيق، 1981، 19/1)

يبدو ابن رشيق أكثر دقة في معالجته لموضوع الأفضلية، فهو ميال للشعر على النثر وقد رأينا ذلك فيما سبق خلال تعرضنا لرأي الحصري؛ كما أن تفضيله للشعر مؤسس وفق معطى بعينه، وهو توفره على الأثر الوجداني في النفوس، فلو لم يكن الشعر بهذا المزية لما كان له أن يتقدم على النثر في واقع التواصل اللغوي، رغم أسبقية النثر عليه. فقد عبر عن وعيه العميق بالظاهرة الشعرية بقوله: «فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به أي فطنوا.» (خلدون بشير، 1981، ص: 99) فالشعر عنده يزيل الهم عن الشجي، ويبعث الأمل في النفوس، ويدخل المسرة والطرب إلى القلوب. فالشعر الذي لا يثير المتلقي لا يعتبر شعراً. ولعل هذا ما جعل العرب يقولون أن ما خرج من القلب لا يجد مكانه إلا في القلب.

ويقدم ابن رشيق مبررا آخر بخصوص تفضيل الشعر عن النثر، ويظهر ذلك في غزارة المادة الشعرية وجودتها، بل وقابلية الشعر للجودة أكثر من النثر الذي رغم أقدميته لم يؤثر في الناس أثر الشعر، ولم يحفظ منه في صدور ما حُفِظَ من الشعر، وفي هذا الصدد يورد ابن رشيق القول الآتي: "و قيل: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره." (ابن رشيق، 1981، 20/1)

وعليه فإن رأي ابن رشيق - فيما يقدر الباحث - أكثر موضوعية وتأسيسا من غيره، وإن كان الثلاثة كلهم يلتقون في نقطة موضوعية المعالجة للقضية.

د- رأي القزاز القيرواني:

لم يقدم القزاز مفهوما للشعر واضح المعالم في كتابه المشتهر باسم "ضرائر الشعر"، ولعله تحدث عن ذلك في كتبه الضائعة التي أشار إليها ياقوت الحموي وابن خلكان. أما كتابه هذا، فقد تعرض فيه إلى قضايا لغوية بحتة دافع من خلالها عن عيوب الشعراء وأغلاطهم. وهذا ما يعكس اهتمامه الكبير بالشعر، إن لم نقل تفضيله له على النثر؛ مادام يكلف نفسه مشقة البحث عن الحجج والشواهد في أشعار الأوائل وقصائدهم وأقوالهم كي يتخذ من ذلك مبررا لأخطاء معاصريه من الشعراء. (خلدون بشير، 1981، ص: 99) فلو لم يكن الشعر أكثر أهمية من النثر عند القزاز لما خص الشعر دون النثر بكتابه ذلك، فضلا على أن موقفه هذا يعكس مدى احتفاء وانحياز المنظومة الثقافية في عصره إلى المدونة الشعرية.

ه- رأي ابن شرف:

نجد رأي ابن شرف في كتابه "أعلام الكلام" ضمن فقرتين أثار فيهما مفهوم الشعر الحسن الجيد، حيث قال: «إن أملح الشعر ما قَلَّتْ عبارته وفُهِمَتْ إشارته، ولحَّتْ لُحُه، وملحت ملحُه، ووقفَتْ حقائقُه وحققَتْ رقائقُه، واستغنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة» (خلدون بشير، 1981، ص: 113)

بينما وردت الفقرة الثانية في خاتمة الكتاب: «وأحسن الحسن منه - أي الشعر - ما اعتدل مبناه وأغرب معناه، وزاد في محمودات الشعر على ما سواه.» (ابن شرف، 1926، ص: 37)

من هذا القول تتضح مقاييس جودة الشعر من الناحية المضمونية، دون أن يشير ابن شرف إلى الجانب الشكلي، ونعني بالشكل الوزن والقافية، فتركيز ابن شرف على معيار الجودة في الكتابة الشعرية،

يعكس لا محالة اهتمامه وتفضيله للشعر على النثر، سيما إن الشعر أكثر تأثيراً في النفوس من النثر، وهذا مما دفع كل النقاد المغاربة إلى تقديمه في سلم الأفضلية بين الصناعتين.

3.2- الرأي التوافقي :

سنحاول في ختام هذه المناقشة النقدية أن نخرج منها برأي توافقي موضوعي - فيما يُقدّر الباحث -

يرضي الطرفين من أنصار الشعر أو النثر، ونستعين في ذلك برأيين مهمين، أولهما للدكتور زكي مبارك، وثانيهما للسرقسطي. وفيما يلي بيان كليهما:

أولاً: رأي الدكتور زكي مبارك:

لقد ناقش زكي مبارك هذه القضية في كتابه (النثر الفني) متعرضاً إلى آراء النقاد في المسألة ثم ختم ذلك برأي في الفرق بين منزلة الشعر ومنزلة النثر، وقال أنه رأي لم يُسبق إليه، مُقَرَّرًا أنَّ الموضوعات هي التي تحدد نوع الصياغة، فليس ينبغي أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع، ولا أن النثر صالح لكل موضوع؛ فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر، فإذا كان موضوع القول متصلاً بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب؛ لأن لغته أقدر على التأثير والإمتاع، وإذا كان الموضوع متصلاً بأعمال العقل والفهم والإدراك كان النثر أوجب؛ لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع. والبلغ الموقَّع هو الذي يفهم سياسة الفطرة في مثل هذه الشؤون، ففي بعض الأحيان يكون الإفصاح بالشعر نوع من العيِّ، كما يكون أحياناً أسمى أنواع البيان. (زكي مبارك، 1934، ص: 24-25)

ثانياً: رأي السرقسطي:

لقد كان السرقسطي (محمد بن يوسف التميمي ت 428هـ) أكثر وعياً واعتدالاً من سابقه في الحكم على القضية؛ ويعود ذلك إلى إدراكه عمق المسألة، بعد تنسيقه لمحاورة طويلة بين أنصار الفنين، حدّد فيها الأسس التي ينتصر فيها كل فريق لما وافق ميله وفنه، ثم قارب بين وجهتي النظر بدفع ما أُثير حول كل من الشعر والنثر من مثالب، ثم أنهى المحاورة بالدعوة إلى ضرورة تجنب المفاضلة بين الشعر والنثر على سبيل العموم؛ مادام أن الأحوال المتباينة من قبح وجمال وإبداع وإحفاق تجري على كليهما. على أن لكل في نظره وظيفة وغاية، فلا سبيل إلا للإقرار بالفضل للشعر في مجاله، وللنثر في مجاله أيضاً؛ لأنهما رافدان لنبع واحد. (عليان مصطفى، 1984، ص: 540-541)

3. خاتمة:

- يمكن القول حتماً: إن سيادة جنس أدبي على غيره من الأجناس الأخرى أمر بديهي طبيعي لا يتطلب كل هذا الجهد المهدور من النقاد، فالظروف الحضارية والحاجات الفكرية والفنية للمجتمعات هي التي تغلب جنساً أدبياً على غيره من الأجناس، حدث هذا قديماً حينما كانت السيادة للشعر ثم تحولت للنثر. وحدث هذا في عصرنا حينما ساد جنس نثري واحد وهو الرواية على غيره من الأجناس النثرية الأخرى على اعتبار أن للرواية علاقة بوسائل الإعلام الحديثة. (البشير القط، 2007، ص: 29)
- إن تفاعل المغاربة مع موضوع المفاضلة بين الشعر والنثر. يعكس بوضوح ذلك التواصل الثقافي بين جناحي العالم العربي مشرقة ومغربة، حيث "انتقلت شرارة هذه المعركة حول القضية النقدية القديمة المتجددة - قضية المفاضلة بين الشعر والنثر - من المشرق إلى المغرب ليتلقفها نقاد القيروان ويدلوا فيها بدلوهم." (البشير القط، 2007، ص: 31) كما أن تفضيلهم للشعر على النثر يعكس مدى استحبابهم للنبض الثقافي في ذلك العصر الذي حظيت فيه المدونة الشعرية بمكانة سامقة.
- نخلص للقول باهتمام النقاد المغاربة بمفهوم الشعر، وأن السمة التي ميزت تناولهم لقضية الشعر هي عدم التقيد بضوابط التعريف التقليدي المنضوي تحت عنصري الوزن والقافية، فقد قدموا تعريفاً واضح المعالم للشعر عندهم، لاسيما عبد الكريم النهشلي، فهو الناقد الوحيد الذي استطاع أن يصوغ مفهوماً واضح المعالم للشعر قبل ابن رشيق. كما أن موقفهم القائل بتفضيل الشعر على النثر لم يكن موقفاً عاطفياً ذوقياً، بل وجدنا آراءهم مؤسَّسةً بمبررات منطقية وموضوعية، فضلاً على أنهم ركزوا على الجانب النفعي في مفاضلتهم، وهو الأثر الوجداني الذي يتركه الشعر في النفوس. ذلك الأثر المتأني من الجودة النصية التي تميز بها الشعر النثر غالباً.

4. قائمة المراجع

المؤلفات

- ابن ثابت الأنصاري حسان، 1992، الديوان، شرح يوسف عيد، دار الجليل، بيروت/لبنان، ط1.
- ابن رشيق، 1981، العملة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجليل بيروت، ط5.
- ابن شرف أبو عبد الله محمد، 1926، أعلام الكلام، مطبعة النهضة، القاهرة.
- البشير القط مصطفى، 2007، قراءات في النقد والأدب، مكتبة الآداب القاهرة، ط1.

- التوحيدي أبو حيان، 1944، الإمتاع والمؤانسة، تح: أحمد أمين، وأحمد الزين، مطبعة مصر، القاهرة/مصر.
- الجاحظ، 1998، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر، ط7.
- الحاتمي، 2000، من حلية المحاضرة، تح: مظهر الحجري، وزارة الثقافة السورية، دمشق/سوريا.
- الحصري القيرواني أبي إسحاق إبراهيم بن علي، 1953، زهر الآداب وثمر الألباب، تح: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1.
- الحصري القيرواني، 1996، نور الطرف ونور الظرف (النورين)، تحقيق ودراسة لينة عبد القدوس، مؤسسة الرسالة، بيروت/لبنان، ط1.
- خلدون بشير، 1981، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- سرحان هيثم، 2006، الأنظمة السيميائية في دراسة السرد العربي القديم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت/لبنان، ط1.
- عليان مصطفى عبد الرحيم، 1984، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس هجري، مؤسسة الرسالة بيروت ط1.
- العسكري أبو هلال، 1981، الصناعتين، تح د. مفيد قمحية، دار الكتب العلمية بيروت، ط1.
- مبارك زكي، 1934، النثر الفني في القرن الرابع هجري، دار الكتب المصرية، مصر، ط1.
- المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد، 1951، شرح الحماسة، تح: أحمد أمين، مطبعة نهضة مصر، القاهرة/مصر.
- النهشلي عبد الكريم، 1983، الممتع في صناعة الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- النيسابوري الميداني أحمد بن محمد، 1959، مجمع الأمثال، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة مصر، ط2.

المقالات

- بوعامر بوعلام، 2017، النثرية في النقد العربي القديم واقعها وهويتها بين المماثلة والمخالفة، مجلة الآداب واللغات، جامعة عمار ثليجي، الأغواط/الجزائر، مج15، ع01.